



فالنصر ليس بكثرة عَدٍ ولا عُدٍ، وإنما هو بيد الله الواحد القهار، الذي يخذل من يريد خذلانهم مهما بلغوا من الكثرة والقوة، وفي هذا تنبئه لنا ألا نعتمد على الأسباب مهما بلغت، فما هي الا طمأنينة للقلوب وتثبيتاً لها على الخير والحق، أما النصر الحقيقي الذي لا معارض له فهو من عند الله، كما قال جل شأنه: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}.

فالنُّصْرَةُ : هي طلب النصر والعون. والأسباب التي يحصل بها النصر نوعان:

النوع الأول: أسباب مادية ملموسة، وهذا النوع هو المشار إليه في قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} أي: وأعدوا لآعدانكم كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة والآلات ونحو ذلك مما يعين على قتالهم.

ويلاحظ أنَّ هذا النوع هو الذي يغلب على قلوب أكثر الخلق، ويعلقون به وحده حصول النصر والرزق، وفي هذا من قصر النظر وضعف الإيمان وقلة الثقة بوع德 الله وكفايته ما الله به عليم.

فالنصر ليس بكثرة عَدٍ ولا عُدٍ، وإنما هو بيد الله الواحد القهار، الذي يخذل من يريد خذلانهم مهما بلغوا من الكثرة والقوة، وفي هذا تنبئه لنا ألا نعتمد على الأسباب مهما بلغت، فما هي الا طمأنينة للقلوب وتثبيتاً لها على الخير والحق، أما النصر الحقيقي الذي لا معارض له فهو من عند الله، كما قال جل شأنه: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}.

ولهذا أدب الله عز وجل صحابة نَبِيِّهِ -وهم خيار الخلق- حين أُعْجِبَ بعضهم بكثرتهم في غزوة حنين حتى قال قائلهم: «لَنْ نُنْكِبَ الْيَوْمَ عَنْ قِلَّةٍ»، فَؤْكِلُوا إِلَيْهِ هذه الكلمة، فكانت الهزيمة في الابتداء، وفر معظم المسلمين من الميدان واشتدت عليهم الأزمة حتى ضاقت عليهم الأرض- على رحبها وسعتها- ثم ولوا منهزمين، إلا رسول الله فَإِنَّه ثبت ولم يَقُرَّ، وصمد ولم يتخاذل، بل كان يدعوه بدعائه الخاشع قائلا: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضْدِي وَأَنْتَ نَصِيرِي بِكَ أَحُولُ وَبِكَ أَصُولُ وَبِكَ أَفَاتُلُ».

فلما زال الْعُجْبُ عن الصحابة وعرفوا ضعفهم، أُنزَلَ اللَّهُ السَّكِينَةُ عَلَيْهِمْ، وأُنْزَلَ جنوداً مِنْ عَنْهُ يثبُتونَهُمْ وَيُبَشِّرُونَهُمْ حتَّى

وأما النوع الثاني: فهو الأسباب المعنوية وهي قوة التوكل على الله، وكمال الثقة به وقوّة التوجّه إليه والطلب منه. وهذه الأمور تقوى جدًا من الضعفاء العاجزين الذين أجأتهم الضرورة إلى أن يعلموا حق العلم أنّ كفایتهم ورزقهم ونصرهم من عند الله وأنّهم في غاية العجز فتكسر بذلك قلوبهم وتتوّجّه إلى الله ثقة فيه وطمعا في فضله وبّرّه ورجاء لما في يديه الكريمتين.

فَيُنْزَلُ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ نَصْرٍ هُمْ لَا يُدْرِكُهُ الْقَادِرُونَ، بِلْ وَيِسِّرْ لِلْقَادِرِينَ بِسَبِّبِهِمْ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ وَالرِّزْقِ مَا لَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ بِبَالِ، وَلَا دَارٌ لَهُمْ يَوْمًا فِي خِيَالٍ.

والسر في ذلك أنَّ لِلَّهِ جُنُودَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، جَمِيعُهَا فِي مَلْكِهِ، وَتَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَقَهْرِهِ، وَهِيَ لَفْرَطٌ كَثُرَتْهَا لَا يَعْلَمُ حَقِيقَتُهَا وَعَدُدُهَا وَقَدْرَتُهَا إِلَّا هُوَ سَبَّاحُهُ، فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَكْشِفُ عَمَّا يَرِيدُ الْكَشْفُ عَنْهُ مِنْ أُمْرِهَا، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرِيدُ وَبِالطَّرِيقَةِ وَالْهَيَّةِ الَّتِي يَرِيدُهَا، لَذَا فَهِيَ غَيْبٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودُ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرًا لِلْبَشَرِ} (المدثر: 31).

وقد يَعْجَبُ إِلَيْنَا حِينَ يَعْلَمُ أَنَّ مِنْ هَذِهِ الْجُنُودِ: الْمُعْنَوَاتُ وَالْمَرْضُ وَذُوِّي الْحِلَالِ الْخَاصَّةُ، وَلَوْلَا وَرُودُ النَّصُوصِ الصَّحِيحَةِ فِي ذَلِكَ لَكَانَ الْأَمْرُ مَحْوَرَ جَدْلٍ وَأَخْذٍ وَرَدٍّ، أَسْوَقَ مِنْ هَذِهِ النَّصُوصِ اثْنَيْنِ:

• الأول : ما رواه الإمام البخاري في كتاب الجهاد والسير من صحيحه - باب: مَنْ اسْتَعَانَ بِالضُّعْفَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي الْحَرْبِ - عن مُصْنَعِ بْنِ سَعْدٍ، قال: رَأَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هُلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعْفَائِكُمْ".

أراد صلى الله عليه وسلم بذلك حصن سعد على التواضع ونفي الزهو على غيره وترك احتقار المسلم في كل حالة.

والسؤال الذي قد يتadar إلى الذهن: ماهي المنزلة التي أراد سعد أن يتميز بها عن إخوانه؟

نجد الجواب شافيا و تتضح لنا الصورة كاملة حين نضم الروايات بعضها إلى بعض، ففي رواية الإمام عبد الرزاق: قال سعد يا رسول الله: أرأيت رجلا يكون حامية القوم ويدفع عن أصحابه أيكون نصيبه كنصيب غيره؟ فذكر الحديث، وعلى هذا فالمراد بالفضل - كما يقول الحافظ ابن حجر - إرادة الزيادة من الغنيمة، فأعلمه صلى الله عليه وسلم أنَّ سهام المقاتلة سواء، فإنْ كان القوي يترجح بفضل شجاعته فإنَّ الضعيف يترجح بفضل دعائه وإخلاصه.

و الاستفهام في الحديث للتقرير، أي ليس النصر وإدار الرزق إلا ببركتهم، فأبرزه في صورة الاستفهام ليدل على مزيد التقرير والتوضيح.

• الثاني- ما رواه الإمام أحمد و الترمذى عن أبي الدرداء، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "أَبْغُونِي ضُعْفَائِكُمْ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعْفَائِكُمْ".

ومعنى «أَبْغُونِي» أي اطْلُبُوا رِضَايَ فِي ضُعْفَائِكُمْ، وتقربوا إِلَيَّ بالتقرب إليهم وتفقد حالهم وحفظ حقوقهم والإحسان إليهم قولًا وفعلا واستئصالا بهم، فهم الأحق بمحالستي، وبالقرب مني.

ومعنى إنَّما تنصرون وبضعائكم: أي إنَّما تُمَكِّنُونَ من الانتفاع بما أخرجنا لكم وتعانون على عدوكم ويدفع عنكم البلاء والأذى بسبب وجود ضعفائكم بين أظهركم، أو بسبب رعايتكم لهم أو ببركة دعائهم، وذلك لأنهم أشد إخلاصا في الدعاء وأكثر خصوصا في العبادة لجلاء قلوبهم عن التعليق بزخرف الدنيا، ومن هنا استدل بعض العلماء على استحباب إخراج الشيوخ والصبيان في صلاة الاستسقاء، فالضعيف إذا رأى عجزه وعدم قوته تبراً عن الحول والقوة بإخلاص، ورق

قلبه واستكان لربه وتضرع إليه فيستجيب الله دعاءه ويحقق له رجاءه، وكم من فئة قليلة غلت فئة كثيرة بذنب الله، بخلاف القوي فإنه يظن أنه إنما يغلب الرجال بقوته، فيكمل الله إلى نفسه على قدر عجبه، ويكون ذلك سبباً للخذلان.

والمقصود بالضعفاء: مَنْ يكون ضعفه في بدنـه (المرض الجسـماني) أو في نفسه (المرض الذهـني والنـفسي) أو في حالـه (الفـقر وقلـة ذاتـ الـيد)، والنـصوص تـشمل الأـنواع الـثلاثـة، فـإـنـ قـيلـ بـأـنـ المـقصـودـ بالـضـعـفـاءـ هـمـ منـ يـسـتـضـعـفـهـمـ النـاسـ لـفـقـرـهـمـ وـرـثـاتـهـمـ، لأنـهـمـ هـمـ الـذـينـ يـسـتـطـيـعـونـ الدـعـاءـ وـالـصـلـاـةـ، كـمـ فـيـ روـاـيـةـ النـسـائـيـ: قـالـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ: "إـنـماـ يـنـصـرـ اللـهـ هـذـهـ الـأـمـةـ بـضـعـيفـهـاـ: بـدـعـوـتـهـمـ، وـصـلـاـتـهـمـ، وـإـخـلـاصـهـمـ".

فالجواب أن الدعاء والصلوة والاخلاص قد تتحقق في النوعين الآخرين، ليس من المريض نفسه وإنما مِمَّنْ يقوم على رعايته ، فكم من مريض يتضرع أهله إلى الله وتنكسر له قلوبهم أكثر من صاحب المرض ذاته.

الجمع بين التوكـلـ والـيـقـيـنـ وـبـيـنـ الـأـخـذـ بـالـأـسـبـابـ:

قد يظن القارئ الكريم أن هناك تعارضـاـ بيـنـ النـصـوصـ السـابـقـةـ وـبـيـنـ النـصـوصـ الـتـيـ تمـدـحـ المؤـمـنـ القـويـ وـتـأـمـرـهـ بـالـأـخـذـ بالـقـوـةـ وـالـاسـتـعـادـ لـلـأـعـدـاءـ، وـعـنـ التـأـمـلـ نـجـدـ أـنـهـ لاـ تـعـارـضـ، إـذـ الـمـرـادـ أـنـهـ مـتـىـ تـمـكـنـ الـمـسـلـمـ مـنـ الـأـخـذـ بـأـسـبـابـ الـقـوـةـ الـمـادـيـةـ وـتـيـسـرـتـ لـهـ فـعـلـيـهـ أـنـ يـسـارـعـ وـلـاـ يـفـرـطـ وـلـاـ يـقـصـرـ.

وقد ورد الجمع بين الأمرين في قول الله عز وجل لنبيه: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِيْنُ} (الحجر: 99).

والمعنى: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات البدنية والمالية والقلبية، حتى يأتيك الموت، وأنت على ذلك، وقد امتنع أمر ربه - يأتي هو وأمي - صلى الله عليه وسلم -، فلم يزل دائياً في العبادة بجميع أنواعها حتى أتاه اليقين، كما جمع النبي الكريم بين الأمرين في قوله "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ، وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ". وفي كل خَيْرٍ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفُعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ..."

فقوله: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفُعُكَ» أمر بكل سبب ديني ودنيوي، بل أمر بالجد والاجتهاد فيه والحرص عليه، نية وهمة، فعلًا وتدبرًا.

وقوله: «واستعن بالله» أمر بالاعتماد التام على الله في جلب المصالح ودفع المضار، مع الثقة التامة في تحقيق ذلك. أَمَّا إذا لم يتمكن المسلم من الجمع بين الأمرين -كأن حبسه المرض في نفسه أو غيره - فعليه خفض الجناح ورقة القلب والانكسار بمشاهدة جلال الجبار.

والخلاصة أن قلب العبد وجوارحه في حالة استنفار تام في ذات الله، الجوائح تستفرغ الوسع في الأسباب حتى يحس صاحبها من نفسه أنه لا مزيد، والقلب يستجلب رضا الله وعونه وثقته ورجاءه والطمع فيه، فإن حدث وقعت به الأسباب فليتحرك بقلبه إلى الله، فإن الله منجز له ما وعد، وليس هذا فحسب بل ربما تَفَجَّرَتْ يتبع الحكمة من قلبه على لسانه.

فلنحرص على تذكير الضعفاء وذويهم بهذه المنة، وأن يقبلوا من الله صدقته، وألا يستصغروا جهودهم، فدعاؤهم لا يقل تأثيرا في الأعداء عن تأثير الأسباب المادية من أسلحة وعتاد.

اللهم أصلح لنا شأنـناـ كـلـهـ، وـلـاـ تـكـلـنـاـ إـلـىـ أـنـفـسـنـاـ طـرـفةـ عـيـنـ، وـلـاـ إـلـىـ أـحـدـ مـنـ خـلـقـكـ. آمـينـ

